

# نقد الإيديولوجيا المهزومة في الجذور الفكرية للهزيمة

## ياسين الحافظ

في ٥-٣-١٩٧٣، في مدينة بنغازي، جرى لقاء عدد من "المثقفين" العرب تحت اسم "لقاء المفكرين العرب" وتحت شعار "الإعداد لمعركة التحرير".

كانت المجابهة العربية-الإسرائيلية بمختلف أبعادها محور مناقشات هذا اللقاء، بيد أن الشطح المألوف لدى العقل التقليدي مدّ المناقشات لتغطي كل شؤون الدنيا و الدين .

لقد مضى على هزيمة العام ١٩٦٧ حوالي ست سنوات، ومع ذلك فإن خبط الجزمة الإسرائيلية على جباهنا خلال هذه السنوات الست لم يوقظ بعد أحداً . هذا هو الانطباع الذي تكوّن في ذهني عندما كنت أتتبع المناقشات: لقد عكست مناقشات هذا اللقاء الواقع "الفكري" المتخلف، السطحي، الممزق، الراكد، الذي لم يخترقه العصر ولم يشعر جدياً بانسياب الزمن، وبالتالي فإن المرء ليكتشف في المناقشات جذور الهزيمة في عقولنا اللاعقلانية وفي "ثقافتنا" الهجينة، السطحية والمتيبيسة.

ما العمل في مناخ كهذا؟ لم أشأ العزوف كلياً، كما أنني لم أنخرط في الحومة . لقد اكتفيت بإلقاء حجر في مياه راكدة تمثل في الكلمة التي تلي هذه المقدمة . وحاولت في كلمة سريعة أخرى أن أدافع عن علاقة عقلانية مع الاتحاد السوفياتي، كما بينت مخاطر نزعة العداء للشيوعية وبخاصة على الصعيد الفكري، إذ إن هذه النزعة تمنع كل تطور للفكر العربي وتعرقل كل تماس حي مع العصر. ثم تركت الملتقى يتابع جلساته.

بعد أن قطع هذا الملتقى شوطاً غير قليل من أعماله، وبعد أن تناول المتلاقون حل المشكلات التي يعانيتها وطننا العربي، حق لي، وأنا الذي فاتتني المناقشة، أن أبدي تقييماً إجمالياً لأعماله، الذي اعتبره تقويماً للواقع الفكري العربي في الوقت نفسه .

في هذا الملتقى تجابه، أو بالأحرى وُجد، تياران. أنا لا أنتسب إلى أي منهما. انا أزعم أنني أنتمي إلى تيار ثالث، لم يرفع صوته بعد في هذا الملتقى . وها هو صوتي محاولة للتذكير لا محاولة للصدام والعراك.

قلت برز في هذا الملتقى تياران رئيسيان، ولكن ثمة سواقي صغيرة فرعية تائهة بينهما. هذان التياران كانا، ولا يزالان، يسيطران على حياتنا الفكرية و السياسية منذ مطلع النهضة العربية الحديثة حتى اليوم، أي حتى بعد هزيمة العام ١٩٦٧.

التيار الأول تيار إسلامي، تراثي، سلفي . تمثل هنا، في هذا الملتقى، في أفكار الدكتور عمر فروخ، التي عرضها بكل جرأة وبكل وضوح.

التيار الثاني تيار قومي في أهدافه، شبه عصري في نياته وشبه تقليدي في واقعه، وتلفيقي (١) (Eclectique) في منهجه. ولقد قدم الأستاذ صلاح الدين البيطار عينات من أفكار هذا التيار .

التيار الأول: يكره الحاضر، و يرى بخوف إلى المستقبل ، ويتطلع بشوق وحنين وتقديس إلى الماضي. وبكلمة : إنه يرفض العصر . العصر الذهبي في المستقبل، هو أن نستحضر عصرأ مضى منذ ألف وأربعمائة عام . إنه تيار يعيش بدلالة الماضي.

التيار الثاني : الحاضر رغم أن الحاضر صنيعه. يريد أن يتقلت من الماضي في حين أن هذا الماضي يمك بتلابيبه. يأسره مستقبل غائم لا يتمثل في الماضي بالضبط وإنما في استحالة عصرية من استحالاته ، فيدور في حلقة مفرغه يظنها تقدماً إلى الأمام . تحت وطأة العصر وإذلاله أصبح يرنو إلى هذا العصر، ولكن ثقل رواسب الماضي في أيديولوجيته تجعل سعيه إلى ولوج العصر أشبه بسعي المهريين، إذ يريد الدخول إلى العصر خلصة عن أعين الماضي أو بمباركة منه. الجزمة الإمبريالية- الصهيونية تدفشه دفشاً إلى العصر، ولكنه يخشى وحشة العصر وبرودته وزلزلته.

لكي لا يبقى كلامي معلقاً في فراغ، سأحاول أن أقول كلمة عن تطورهما ونهاجيتهما، ثم أقدم عينات من تفكيرهما.

١- التيار الأول نهاجيته القياس أو المحاكاة. وما دام التراث بالنسبة إليه هو القرآن والسنة بالأساس، لذا أصبحت مهمة "العقل" أن يحاكي ، أن يقيس كل مشكلة جديدة بالمشاكل القديمة. فإذا لم يجد مماثلة أو مشابهة تعين عليه أن يستوحي المنحى العام أو الروح العامة للتراث.

نهادية هذا التيار إذاً هي السير وراء نهج الأسلاف : مهمتنا هي أن نكرر أسلافنا، والويل لنا إذا أخطأنا التكرار. هنا فقد الفكر الدم والعصب، وربط الدماغ بحبل موصول بالماضي السحيق، وأصبحت مهمته، بعد أن رفض غبار الصوفية عن الإسلام، أن يحاكي فقط . هذا التيار لم يستوعب فكر الأسلاف، بل على العكس فإن فكر الأسلاف الذي استوعبه.

إن الوزن الأيديولوجي والسياسي لهذا التيار لا يتمثل في هذا التيار في حد ذاته، فحده، كقوة اقتحامية، أصبح مثلوماً بعد أن أنجز مهمته في بدايات النهضة على يدي الأفغاني ومحمد عبده ، اللذين نهضا بمهمة تاريخية، ولا شك، تجسدت في تدمير الأيديولوجيا الصوفية التي كانت تشكل الغطاء الأيديولوجي للدولة العثمانية كما كانت تشكل الأيديولوجية السائدة في صفوف الجماهير.

تلم حدّه، وتكرر كقوة اقتحامية، لا لأن محاولة التجديد الإسلامي التقليدية كانت عاجزة عن مواجهة تحديات عصر جديد كلياً بالنسبة إلى التراث الإسلامي فحسب، بل لأن هوة لا تتردم قامت بين الماضي العربي والواقع العربي الذي انسحق تحت ضربات أوروبا العصرية. إن انهيار هيكل المجتمع العربي التقليدي بفعل التغلغل الغربي الاستعماري والحضاري، وكون هذا المجتمع النغل الجديد أصبح الجزء الرث والخاضع في بنیان دولي جديد، قد خلقا ضرباً من انقطاع في السلسلة التي تربط الماضي والحاضر، أصبحت معه محاولة الإصلاح التقليدية تسقط في هذه الهوة ، وذلك لأن الصدمة الإمبريالية للمجتمع العربي التقليدي لم تبق التطور العربي متصلاً متواصلاً كنمو عضوي منتظم، بل أحدثت انقطاعاً لا سبيل إلى رآبه. وهذا يفسر فشل الوهابية في الامتداد إلى المجتمعات العربية الأقل تأخرأ وتحولها إلى مومياء في المجتمعات البدوية العربية التي بدأت ترى العصر من خلال أنابيب البترول.

ولكن إذا كان هذا التيار الايديولوجي قد أصبح مثلوم الحد كقوة اقتحامية ، إلا أنه ما زال يسهم في عرقلة تطور الفكر العربي تطوراً متوازناً حديثاً نحو العصرية، ويمارس ضرباً من التضيق والحصار على كل فكر عربي حديث.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذا التيار، الذي كان مبنوياً في كل خلايا العقل العربي، شكل أرضية التيار الثاني في أسوأ الأحوال أو كان عنصراً من عناصره المكوّنة (٢).

٢- وعلى أرضية التيار الأول، وبسبب عجزه، ولد التيار الثاني . وكما مثل الأول المرحلة الأولى في تطور الفكر العربي الحديث، جاء الثاني ليمثل المرحلة التالية الأكثر تقدماً في هذا التطور، حيث لعبت دوراً إيجابياً تفضيلاً بدأ يضم منذ أوائل الستينيات حتى استنفد مع هزيمة حزيران/ يونيو.

"نهاجية" التيار الأول كان المحاكاة والقياس. أما الثاني فنهاجيته التلفيق . كيف؟

الفكر الإصلاحية السلفي فكر مصقح إزاء ما يشكل جوهر العصر أو جوهر الحضارة الأوروبية. أما الفكر التلفيقي فقد تمزق وفقد توازنه بين ثقل التراث وصدمة الغرب. حاول أن يبقى على ضرب من ارتباط بالتراث ففشل، وحاول أن يحاكي قديماً بعض جوانب المدنية الغرب التقنية ففشل. تراث الماضي يجثم في أعماقه وسطوة أوروبا تخيم على ذهنه. فهو تراثي تمغرب أو متمغرب تسلف . ولكن تمغربه تليفيق وتسلفه تليفيق أشد. على ثوب عربي حاول أن يضع رقعا تراثية ففشل، وعلى ثوب تراثي حاول أن يضع رقعا متمغربة ففشل.

إنه ينتقي، ينتقي دوماً ، وينسى أو يتناسى أن الفكر ببيان ونظام وآلية ونهاجية.

إنه فكر بلا عظمة وبلا رجولة. لقد ضاق بالماضي، ولكنه عجز عن استيعاب العصر. إنه فكر هجين، أمه التراث وأبوه عالج أوروبي . ولكنه يمثل خطوة كبيرة- على الصعيد التاريخي- في تطور الفكر العربي الحديث وتطوره.

٣- السؤال: ولكن كيف؟ التيار الأول استوعبه فكر الأسلاف ولم يستوعب فكر الأسلاف. التيار الثاني لم يستوعب لا الماضي ولا العصر. وثمة تيار آخر (بل أقل من تيار) متمغرب خالص، بمعنى أنه استوعب بعضاً من الفكر الغربي، فاقتلعه هذا البعض (ولأنه بعض) عن الأرض التي يعيش عليها وطرح عليه وأثقله بمشكلات ليست مشكلات الشعب الذي ينتمي إليه، فعاش مغترباً متمغرباً .

لكي لا أطيل أقول باختصار: إنه نهاجية سليمة وإن أفقاً واضحاً للنضال إنما يتطلبان استيعاب الماضي (لا أن يستوعبنا الماضي) يتطلبان استيعاب العصر، لا في تظاهراته، لا في جوانبه التقنية، بل في نهاجيته وميكانيكية حركته وسيره وفي بنيته الإجمالية الشمولية، بدءاً من عصر النهضة، مروراً بعصر الأنوار، وصولاً إلى الماركسية.

أنتقل الآن إلى عرض عينتين من فكر التيارين:

**موقف التيارين من المسألة القومية العربية**

التيار الإسلامي الخالص غير المنافق يقول ما يلي : إن الدين أساس الجماعة وناظم عقدها. والإسلام هو وحده إطار الجماعة أو الأمة (المصطلح القديم الذي حل محل مصطلح الأمة) الإسلامية. لذا فالحديث عن أمة عربية تجديف على الإسلام وقسم للأمة الإسلامية وبدعة، وهو مرفوض بالتالي.

التيار القومي، تُلقي النهاجية، يهرب من الموضوع، يلف حوله، فهو يريد أن يهرب أفكاره تهرباً. يقول كل شيء ولا يقول أي شيء . يستحضر العنصر الديني من الماضي، ويستجلب المذهب القومي أو الايديولوجيا القومية من الغرب، يخلط شعبان برمضان، ولكن شعبان يبقى شعبان ورمضان يبقى رمضان.

وسأكتفي الآن بعرض رؤوس أقلام فقط حول هذه المسألة:

١- إن الرابطة القومية هي رابطة جديدة، رابطة القوم أو الأمة التي تتكلم لغة واحدة، تحل محل الروابط القديمة، ومنها الرابطة الدينية.

٢- إن القومية العربية قد نمت كحركة سياسية ضد العثمانيين، وهم مسلمون . وهي، كايديولوجيا، كانت بالأساس ايديولوجيا مثقفين عرب مسيحيين (رغم إسهام عدد من المثقفين المسلمين العرب في صياغتها في مراحل لاحقة) أرادوا تجاوز الرابطة الدينية القديمة وبناء رابطة جديدة تجمعهم بالعرب المسلمين.

٣- ولهذا فإن الحركة القومية العربية لا يمكن إلا أن تكون حركة علمانية إذا أرادت أن تكون صادقة مع نفسها. نعم إن الإسلام، كتراث حضاري (يضم بالطبع سائر فروع التراث الإسلامي من أدب وفلسفة وسياسة وعلم، ولا يقتصر على اللاهوت الديني المتمثل في القرآن والسنة وعلوم الكلام)، يشكل عنصراً في القومية العربية، ولكنه مجرد عنصر.

٤- وما دامت الحركة القومية العربية حركة علمانية، لذا فإن سياستها الدولية يجب أن تبنى على أساس مصلحتها القومية، أي على أساس المنفعة المقاسة قياساً عقلانياً ، بصرف النظر عن أي اعتبارات أخرى، ومنها الاعتبار الديني.

٥- هنا لا يسعني إلا الإشارة إلى كل الجانب الإيجابي في التيار القومي العربي إنما يكمن في تأكيده على الوحدة العربية. و لكن لا بد من قول كلمة : إن الوحدة العربية هي الشرط اللازم لا الكافي لدخول العصر.

### موقف التيارين من مسألة استيعاب التقنية الحديثة

الصدمة الأوروبية التي تلقاها العرب من الغرب، منذ الغزو النابوليوني لمصر، أجبرتهم على التساؤل: كيف يمكن أن نصبح متقدمين وأن نبقي على هويتنا في الوقت نفسه.

ومنذ الجبرتي، مروراً بمحمد عبده، وصولاً إلى الدكتور حسن صعب (٣)، والعرب ما زالوا يطرحون السؤال نفسه ويجيبون عنه الجواب نفسه. ولكن لا حل، وجزمة الاستعمار مستمرة تهرس أنوفنا منذ ذلك الوقت وحتى اليوم.

ولم يكن العرب وحدهم هم الذين طرحوا هذا السؤال على أنفسهم. فالصينيون والفيتناميون والهنود، إلخ، طرحوا هم أيضاً مثل هذا السؤال، وبالألفاظ نفسها تقريباً.

**التيار الأول**، التيار الإسلامي الإصلاحي، فسخ أوروبا إلى شقين: الشق الفكري، رفضه. الشق التقني قبله. يقول دعائه: أوروبا منحطة أخلاقياً ومنتسخة اجتماعياً وملحدة فكرياً، وهذا زاد مرفوض. أما زادها الآخر فنقبله: الوسائل التقنية.

**التيار الثاني**، التلفيقي، تمسك بالماضي (بل بقي الماضي ممسكاً به جاثماً في أعماق تفكيره وعاداته) وأراد أن يمسك بالعصر في الوقت نفسه. فأضاف إلى شعار الأصالة شعاراً جديداً، شعار التحديث أو العصرية. فأصبح شعاره أصالة محدثة أو تحديثاً أصيلاً.

وكالعادة، وضع التراث الغربي في طبق بعد أن فرمه نتفة نتفة، وأخذ ينتقي ما وسعه ذهنه المحدود الانتقاء.

ماذا كان يرفض... وماذا كان يقبل؟

لم يكن، فعلياً، يرفض ما يهدد هويته التقليدية، كما أنه لم يكن يقبل ما يراوغ ويدغدغ. بل بالأحرى كان يهرب من كل ما يزلزل "عاداته الذهنية" وتصرفاته الدهرية، وكان يقبل ما يمكن أن يتصالح مع هذه العادات والتصرفات ولا يهدد بشقبتها. وفي كل الأحوال فإن الاجتياح الغربي على صعيد الحياة اليومية كان يفرض عملياً ما كان يهرب منه التيار التلفيقي نظرياً، مما أفقد هذا التيار الطابع الريادي.

التراث الغربي لا يمكن أن يفسخ أو يفرم. التراث الغربي كل متكامل، له سيرورة، له هيكل، له آلية، له ركائز. إما أن تستوعبها كلها وإما أن تهرب منها كلها. التيار القومي التلفيقي لم يدرك هذه الحقيقة تارة، أو كان يهرب منها تارة أخرى.

الأصالة والتحديث، وما أجمل هاتين الكلمتين عندما تجمعان، جعلنا أصالة التيار التلفيقي هجينة، وجعلنا تحديثه سلفية خجولة. إن جانباً من هذا التيار غارق في أوروبا والجانب الثاني غارق في الماضي. وكما فسخ التيار الأول أوروبا إلى قسمين، حاول الثاني أن يلصق نتفة من أوروبا مع نتفة من الماضي في كيان واحد.

وبالفعل فإن التكنولوجيا- ظاهرياً- لا تهز عاداتنا الذهنية ولا تشقلب عاداتنا وتصرفاتنا. ومن أجل هذا قبلت بالكلام.

منذ الجبرتي ونحن نركض وراء التكنولوجيا. ولكن يبدو واضحاً أننا لم ندركها.

وأحد أدلة ذلك الألام والحرقة التي رأيناها على وجه الدكتور صعب عندما كان يتحدث عن التكنولوجيا.

تلك سذاجتنا. لماذا؟

التكنولوجيا الحديثة ليست سوى ثمرة من ثمرات التراث الغربي، هي الجانب التقني في بنیان واحد متكامل يتطور منذ خمسة قرون. لذا فإن استيعاب التكنولوجيا الحديثة إنما يقتضي أن نستوعب المقدمة والأرضية الثقافية لهذا التراث.

عندما ركضنا وراء التكنولوجيا مقطوعة عن أرضيتها الثقافية أصبح لدينا طائرات ولكن لم يصبح لدينا طيران، أصبح لدينا عسكر ولم يصبح لدينا جيوش، أصبح لدينا مصانع ولكن لم تصبح لدينا صناعة. إذا لم نستوعب الأرضية الحضارية والفكرية لهذه التكنولوجيا، فلن نستطيع البتة أن نجعل من الفرد ترساً في جماعة، بل سيبقى فرداً متفرداً عاجزاً.

أخص: طريقنا ما زال شاقاً وطويلاً. يجب أن نستوعب الماضي لا أن يستوعبنا الماضي. يجب أن نستوعب الغرب لا أن يستوعبنا الغرب (في طرح علينا مشاكل ليست مشاكلنا)، إنه لطريق طويل، ولكن بعد هزيمة حزيران/ يونيو لا بد من السير في هذا الطريق.

### هوامش

(١) هنا لا بد من إيضاح: ما دمت بصدد الحديث عن المنهج، لذا لست إزاء تقويم اخلاقي كما أنني لا أرمي إلى عرض تحقيري. لقد استبعدت كلمة انتقائي لا سيراً مع القاموس الفلسفي المصري فحسب، بل لأنني أردت أن اترك عبارة الانتقائية للمذهب الذي يحاول انتقاء الأفضل بين المذاهب. أما التلفيقية فهي النزعة الفكرية التي تقتطع لا بدالة الحاضر فحسب، بل الانتقاء تحت ضغط الماضي، بصرف النظر عن البنیان الفكري والترابط المنهجي ومتطلبات تغيير الواقع، فضلا عن انتقاء متناقضات.

(٢) بل أذهب إلى أبعد من ذلك. إن التيار السلفي، كمنهاجية، يشغل حيزاً كبيراً إلى هذا الحد أو ذاك في الماركسيات العربية. وإلا كيف يمكن أن نفسر ضمور العنصر العقلاني في الماركسيات العربية (التقليدية والجديدة). إن المعتقدية (الدوغمائية) لا تفسر وحدها تسطح وفقر الماركسيات العربية. فستان، مثلاً، بين دوغمائية موريس توريث ودوغمائية خالد بكداش. إن الفخفخة اللفظية عند خالد بكداش وغياب أي عنصر نقدي في تفكيره وامتنالته وأسلوبه التقريري وعلاقاته الشرقية مع رفاقه تعطي صورة واضحة عن الأرضية الشرقية التقليدية التي بنيت عليها ماركسية خالد بكداش، مثلاً.

(٣) أحد المشاركين في الملتقى، ألح كثيراً على مسألة استيعاب التقنية. منهجه أزهرى الأرضية متأمرک البنیان.